

العهد والميثاق في القرآن الكريم

رابعاً: المبحث الثالث

مجالات استعمال مصطلح العهد والميثاق

بعد النظر والتمعّن والاستقراء للآيات التي ورد فيها لفظ العهد أو الميثاق، وبعد الرجوع إلى تفسير هذه الآيات وما قبلها وما بعدها مما يرتبط بها أو ترتبط به، اتضح لي أن هذا المصطلح استعمل في مجالات كثيرة، ولم يكن حصراً على الاستعمال في مجال واحد أو مجالين.

فنجد أنه استعمل في مجال تقرير العقيدة وبيانها - بأقسامها المعروفة - وهذا من أوسع المجالات التي استخدم فيها مصطلح العهد والميثاق.

كما نجد أنه قد ورد في بيان العبادات والأمر بها، وفي الحث على التمسك بالأخلاق الفاضلة وإرشاد المسلمين إلى ذلك.

أما في مجال العلاقات بين الدولة المسلمة وغيرها فقد ورد هذا المصطلح ليبين ويرسم كيف تكون تلك العلاقة بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات في أحوال مختلفة من أحوال الدولة الإسلامية. وفي باب المعاملات الفردية والجماعية فقد ورد ليكون أساساً وأماناً للمتعاملين، وليضفي جوّ الثقة لدى من يتعامل مع المسلمين.

وفي القضايا الاجتماعية ورد هذا المصطلح حاسماً، ومغلقاً، لبعض أبواب الشرّ التي قد تعصف بنية المجتمع المسلم وتثير فيه القلاقل والاضطرابات، وفي مجال الحث على الجهاد في سبيل الله جاء العهد مثيراً للهمم وموطنًا للعزائم ومذكراً بعواقب الفرار والانهازم.

وهكذا نجد أن مجال استعمال هذا المصطلح واسع في القرآن الكريم، بل نجد أنه قد ورد في بعض الآيات متناولاً عدة مجالات في وقت واحد. ومن هنا ولأهمية بيان هذا الجانب فسأقف مع كل آية من آيات العهد والميثاق مبيناً المجال الذي استعملت فيه، وسأسلك في هذا أسلوب التفسير الموضوعي حيث قمت باستقراء الآيات وحصر المجالات التي ورد فيها مصطلح العهد والميثاق، ثم قسّمت المجالات ورتبتها

ترتيباً فنياً، وذكرت الآيات التي وردت تحت كل مجال من المجالات المختلفة، مبيّناً عند كل آية علاقتها بهذا المجال في ضوء جوّ الآية ومعناها، متصلاً بما قبلها وما بعدها.

مع التنبيه إلى أن هناك تداخلاً في المجالات التي وردت فيها بعض الآيات، ولكنني سأرجح ما يكون أظهر في استعمال الآية وقد تتكرر الآية في أكثر من مجال حسب معناها ومدلولها.

أولاً: في العقيدة

إن أهم مجالات استعمال مصطلح العهد والميثاق مجال العقيدة والمتبع للآيات التي ورد فيها لفظ العهد والميثاق يلحظ هذا الجانب بوضوح، بل لا أتعدى الحقيقة إذا قلت: إن الآيات التي تبدو متصلة بجانب من الجوانب الأخرى غير مجال العقيدة - ظاهراً - ترجع في النهاية إلى تحقيق معنى من معاني العقيدة وهذا مرتبط بقضية أساس، ألا وهي: أنه لا انفصال بين الشريعة والعقيدة عند المتعمق في نهاية الأمور ومآلاتها.

والجانب العقدي الذي بدا لي في عدد من الآيات التي ورد فيها هذا المصطلح عموماً يتعلق بالإيمان بالله وكتبه ورسله والإيمان بالشرائع المنزلة.

ومن هنا سأتناول الآيات حسب ما أشرت إليه آنفاً مما يتعلق بجانب العقيدة.

١ - الإيمان بالله - سبحانه وتعالى: هذا الجانب من أهم الجوانب، بل هو الأساس الذي تتفرغ عنه جميع مسائل العقيدة، وقد وردت آيات كثيرة تتضمن لفظ العهد والميثاق وتشتمل على وجوب الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - إما تصريحاً أو ضمناً، ففي أول آية في القرآن يرد فيها لفظ العهد والميثاق نجد الحكم من الله تعالى على من نقض العهد والميثاق بالكفر، ومعنى ذلك أن الالتزام بالعهد والميثاق من صميم الإيمان بالله سبحانه، بل لا إيمان إلا بالالتزام بعهد الله وميثاقه، يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ

عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ

الْحَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴿٢٨﴾ (١) [البقرة: ٢٧ - ٢٨].

إذا فنقض العهد والميثاق كفر، والالتزام به إيمان. وفي آية أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾^(١) الآية (٨٣).

وفي هذه الآية الكريمة إخبار منه سبحانه بأنه قد أخذ الميثاق على بني إسرائيل بأن يعبدوه وحده لا شريك له، وهذا مقتضى الإيمان به جل وعلا.

وتتواصل آيات العهد والميثاق مبينة كفر من نقض عهد الله وميثاقه، ونافية عنه الإيمان بالله تعالى وهذا تأكيد على وجوب تحقيق معنى الإيمان بالالتزام بميثاق الله وعهده الذي أخذه على عباده خصوصاً وعموماً.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) [البقرة: ٩٣].

بل نجد أن الآية التالية تربط بين الإيمان والعهد ربطاً قوياً يحدد أن من أهم أسباب نقض العهد والميثاق عدم الإيمان ﴿أَوْكَلَّمَا عَنْهُمْ عَهْدًا غَدَاً نَبَذَهُ فَرِيفٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) [البقرة: ١٠٠]. وفي سورة آل عمران يبين سبحانه أنه أخذ العهد على النبيين بالإيمان به وتصديق رسله، ويطلب من الرسول ﷺ مع إخوانه الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُنْفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٤) (٨٤).

١ - سورة البقرة آية: ٨٣.

٢ - سورة البقرة آية: ٩٣.

٣ - سورة البقرة آية: ١٠٠.

٤ - سورة آل عمران آية: ٨٤.

وتتوالى الآيات التي تربط بين الوفاء بالعهد والإيمان به تعالى، حيث نلاحظ التلازم الكبير بين نقض العهد والميثاق وبين الكفر بالله في عدد من الآيات التي أشرنا إلى بعضها فيما مضى، ويؤكد ذلك في قوله تعالى في سورة النساء:

﴿ فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَقَهُمْ وَكُفِّرْتُمْ بِعَايَةِ اللَّهِ ﴾ ^(١) ثم يقول في آخر الآية ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(٢) إثبات للكفر ونفي للإيمان، ويؤكد ذلك في الآية التي بعدها مباشرة ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرِيَمَ هَتِّنَا عَظِيمًا ﴾ ^(٣)

وقضية الإيمان بالله قضية أساس، من أجلها خلقت البشرية ^(٤) فلا غرو أن يأتي العهد والميثاق ضماناً مؤكدة لوجوب الإيمان به سبحانه وتعالى، بل تتابعت الآيات - آيات العهد والميثاق - في هذا المجال وتنوعت ليستوعب المسلم تلك الحقيقة ويؤمن بها ويحذر أن يكون كبني إسرائيل الذي أدى بهم نقض العهد والميثاق إلى الكفر واللعن والطرده عن رحمة الله ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ ^(٥) ثم بين سبحانه نوع هذا الميثاق وجزاء من التزم به وعمل بمقتضاه، وأن مآله إلى الجنة، أما من نقضه فقد كفر ولم يؤمن، وعبر عن النقض بالكفر، لأن نقض العهد مساو للكفر بالله، بل هو الكفر بعينه ﴿ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ^(٦) وكما أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بأن يؤمنوا ويصدقوا رسله، فقد أخذ الميثاق على الذين قالوا إنا نصارى ﴿

١ - سورة النساء آية: ١٥٥.

٢ - سورة النساء آية: ١٥٥.

٣ - سورة النساء آية: ١٥٦.

٤ - (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات: ٥٦].

٥ - سورة المائدة آية: ١٢.

٦ - سورة المائدة آية: ١٢.

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ ﴿١﴾ والميثاق هو الميثاق والنهاية هي النهاية ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ﴿٢﴾

وهكذا تستمر الآيات في الدعوة إلى الإيمان بالله منبهة إلى ما أخذه الله على البشر من عهد وميثاق، ومشتعة على أولئك الذين لم يحترموا عهودهم فلم يحققوا الإيمان في أنفسهم: ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ﴾ ﴿٣﴾ وفي سورة الأنفال يصف فئة من البشر بمجموعة صفات كل واحدة منها كافية للزجر والتهديد لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، هذه الفئة لا تؤمن بالله لوقوعها في الكفر، وهي بذلك شرّ الدواب على البسيطة، ما سر هذا الأمر؟ وما سبب خروجها من الإيمان؟. ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ﴿٤﴾ وهذا الأسلوب من أساليب القرآن الرائعة في الوصول إلى الحقائق والأهداف، فالعهد والميثاق لم يكن إلا من أجل الإيمان، فليس مراداً لذاته ولكن لما يؤدي إليه، فالإيمان هو الهدف والغاية، ولكنه يجعل للوسيلة قوة تبدو أنها في مستوى الغاية، لتكون لها المهابة في البقاء والصيانة، محافظة على الأصل والغرض، وفي مجال الإيمان نفسه وبأسلوب بلاغيّ بديع، يشير إلى الشيء بذكر ما يقابله ويضاهيه، مستخدماً لفظ العهد ^(٥) الذي قد أخذ على بني آدم مذكراً بهم ومرشداً ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ﴿٦﴾ .

١ - سورة المائدة آية: ١٤ .

٢ - سورة المائدة آية: ١٧ .

٣ - سورة الأعراف آية: ١٠١ .

٤ - سورة الأنفال آية: ٥٥ .

٥ - العهد هنا يحتمل معنى الأمر والوصية على أسنة الرسل، ومعنى الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم، والنهاية عند التدقيق واحدة.

٦ - سورة يس آية: ٣٦ .

ويتكرر التذكير بالميثاق كوسيلة حاسمة وملجئة لتحقيق الإيمان الذي أمر الله به عباده ﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۗ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (١) أمر ووعد، ولكن الوعد وحده قد لا يكفي، بل لا بد من أمر يكون معيناً ودافعاً لهم، فمن لم يغيره الوعد فهذا هو التذكير والوعيد ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

وكما بدأت آيات العهد والميثاق في القرآن الكريم في مجال الإيمان نجد خير ختام لهذه الآيات في المجال نفسه، فكما أن آخر آية (٣) ذكر فيها لفظ الميثاق وردت في سورة الحديد، وهي في صميم مجال الإيمان - كما أسلفت - نجد أن آخر آية ورد فيها لفظ العهد جاءت في سورة المعارج، مبينة وصف المؤمنين - كما في سورة المؤمنين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٤) فكما كانت البداية كانت النهاية.

ومن خلال ما مضى يتضح لنا أن مجال الإيمان - وهو أحصى أبواب العقيدة - من أوسع المجالات التي ورد فيها مصطلح العهد والميثاق، ويزداد الأمر وضوحاً إذا تذكرنا أن أهمّ العهود والمواثيق ما أخذه الله على آدم وذريته عند إخراج الذرية، وفي أي مجال؟ أنه الإقرار بعبودية الله جل وعلا، وهل ذلك إلا الإيمان بالله وحده وصدق الله العظيم ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

١ - سورة الحديد آية: ٧.

٢ - سورة الحديد آية: ٨.

٣ - أي في الترتيب لا في النزول.

٤ - سورة المؤمنون آية: ٨.

٥ - سورة الحديد آية: ٨.

الإيمان بالكتب المنزلة

الركن الثالث من أركان الإيمان أن يؤمن المسلم بكتب الله التي أنزلها على رسله، ولقد حفل هذا الركن بالاهتمام في آيات كثيرة نزلت على رسولنا ﷺ أمرة له بالإيمان بالكتب وداعية إلى ذلك. ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١).

وفي آخر سورة البقرة يقرر حقيقة إيمانية ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۗ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٢). ويأتي الأمر للرسول ﷺ في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣).

وهكذا نلاحظ الاهتمام بهذا الجانب من جوانب العقيدة الذي لا يتم الإيمان دون تحقيقه، وفي سياق هذا الاهتمام جاء مصطلح العهد والميثاق في مجال الدعوة إلى الإيمان بكتب الله المنزلة على رسله، وقد تنوعت الأساليب التي ورد فيها هذا المصطلح، تبعاً لأساليب القرآن البديعة الرائعة. ولقد شدّ انتباهي كثرة الآيات التي وردت في مجال الإيمان بالكتب متضمنة لفظ العهد والميثاق مما أضفى أهمية على استعمال هذا المصطلح تكشف عن الدور (٤) الذي يؤديه ضمن الأساليب القرآنية المتنوعة. وأول آية ورد فيها لفظ العهد والميثاق جاءت في سياق الرد والتشنيع على الذين لا يؤمنون بوحى الله ويبحثون عن المطاعن التي يوجهونها لكتاب الله المنزل - القرآن - ليصدوا الناس عنه. فمن وسائل المشركين وأعوانهم للصدّ عن دين الله أن روجوا لمقولة صدقها بعض المنافقين وتحمسوا لها، حيث قالوا: إن هذا القرآن ليس كلام الله وكيف يكون كلامه وفيه ألفاظ يتنزه عنها الباري، ففيه

١ - سورة البقرة آية: ١٣٦.

٢ - سورة البقرة آية: ٢٨٥.

٣ - سورة آل عمران آية: ٨٤.

٤ - المعجم الوسيط مادة (دور) ٣٠٣/١.

ضرب الأمثلة بالعنكبوت وبالذباب، وهذا أمر لا يصدر عن الله، مما ينفي أن يكون هذا القرآن كلام الله^(١). وهنا ردّ الله - سبحانه وتعالى - عليهم ردًا حاسمًا قاطعًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾^(٢) ولا شك أن هناك مؤمن ومكذب ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(٣) ومن هؤلاء الفاسقون؟ ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾^(٤) وفي النهاية ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٥) عدم إيمان بوحى الله ونقض للعهد والميثاق والنتيجة كفر وضلال وفسق وخسران.

وفي آية أخرى يدعو سبحانه وتعالى بني إسرائيل للوفاء بالعهد الذي عاهدوا عليه، ومن صميم هذا العهد أن يؤمنوا بالتوراة، وفي التوراة وجوب الإيمان بمحمد ﷺ والكتاب المنزل عليه ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَآرْهَبُونَ﴾^(٦) وءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونَ﴾^(٧) هذا هو مقتضى العهد الذي بينهم وبين الله جل وعلا: إيمان بالمنزل، وعدم كفر وابتعاد عن الرشوة بالتوراة، وتحقيق ذلك تحقيق للتقوى ﴿وَإِيَّيَ فَاتَّقُونَ﴾^(٧)

وأخذ الميثاق على بني إسرائيل عند رفع الطور كان بإلزامهم بأخذ التوراة والعمل بما فيها، وهل التوراة إلا أحد كتب الله المنزلة؟.

١ - انظر أسباب النزول للواحدي - ص ٥٨ وفي ظلال القرآن ٢١/١.

٢ - سورة البقرة آية: ٢٦.

٣ - سورة البقرة آية: ٢٦.

٤ - سورة البقرة آية: ٢٧.

٥ - سورة البقرة آية: ٢٧.

٦ - سورة البقرة آية: ٤٠.

٧ - سورة البقرة آية: ٤١.

ولقد تكررت الآيات التي بيّنت أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالإيمان بالتوراة، إيماء لأهمية الميثاق ووجوب الوفاء به: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١).

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمَعُوا ﴾ (٢) ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ (٣) ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ (٤).

وفي مجال الإيمان بكتاب الله، يخاطب سبحانه بني إسرائيل مذكراً لهم بالمواثيق التي أخذها عليهم ومبيناً مغبة تلاعبهم بكتاب الله، مدّعين أن عملهم هذا وفاء بعهد الله وميثاقه، والأمر ليس كذلك: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ (٥) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ (٦).

وبعد أن بين سبحانه نقضهم لتلك المواثيق هدهم قائلاً: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧) وهكذا نجد التلازم القوي بين الوفاء بالعهد والميثاق وبين الإيمان بكتب الله وآياته المنزلة.

والحديث عن بني إسرائيل وما أخذ عليهم من مواثيق حديث طويل، ولكن القرآن الكريم في سياق حديثه عنهم يركز على الربط المباشر بين عهودهم وكفرهم بكتب الله: ﴿ أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ رُءُوسَهُمْ لَكِبُوا بِهِم مِّيثَاقَهُمْ فَجَاءَهُمْ مِنْهُمْ ظُهُورُهم فَجَاءَهُمُ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (٨).

١ - سورة البقرة آية: ٦٣.

٢ - سورة البقرة آية: ٩٣.

٣ - سورة النساء آية: ١٥٤.

٤ - سورة الأعراف آية: ١٧١.

٥ - سورة البقرة آية: ٨٣.

٦ - سورة البقرة آية: ٨٤.

٧ - سورة البقرة آية: ٨٥.

أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ من هم؟ ما صفتهم؟ بماذا يتميزون؟ ﴿الَّذِينَ يُوْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ﴿٢﴾ .

وهكذا ومن خلال ما سبق يبرز استعمال مصطلح العهد والميثاق في مجال الدعوة إلى الإيمان بكتب الله المنزلة، وتذكير الذين كفروا من أهل الكتاب بما أعطوه من عهود وما أخذ عليهم من موثيق بأن يؤمنوا بالتوراة وما فيها، ومقتضى ذلك أن يؤمنوا بالإنجيل والقرآن، كما أن على أمة كل نبي أن تؤمن بالكتاب المنزل عليه وسائر كتب الله المنزلة على أنبيائه، وأمة محمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء وهي آخر الأمم من عقيدتها أن تؤمن بالقرآن وجميع كتب الله المنزلة، وهذا من مقتضى العهد الميثاق.

الإيمان بالأنبياء والرسول

ورد استعمال مصطلح العهد والميثاق في مجال وجوب الإيمان بأنبياء الله ورسله، وذلك في عدة آيات في كتاب الله، فالميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل وذكر في القرآن مرات عديدة كان يتضمن وجوب الإيمان برسول الله سبحانه وبالأخص نبينا محمد ﷺ حيث جاء اسمه وصفته في التوراة، وقد سبق بيان ذلك في مبحث نوع الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل مما يغني عن الإعادة. ويشير القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيفٌ مِّنْهُمْ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيفٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴿٣﴾ . فالرسول ﷺ هو المصدق لما معهم، والذي معهم هو التوراة، وفي التوراة وجوب الإيمان بالرسول ﷺ وقد أعطوا العهد وأخذوا عليهم الميثاق بالإيمان بها وما فيها.

وأخذ الميثاق على النبيين كان في مجال وجوب الإيمان برسول الله سابقهم ولا حقهم فالسابق يؤمن باللاحق ويشر به، واللاحق يؤمن بالسابق ويصدق بما جاء به ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءِ اتَّيْتُكُمْ

١ - سورة الرعد آية: ١٩ .

٢ - سورة الرعد آية: ٢٠ .

٣ - سورة البقرة آية: ١٠٠ .

مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ^١ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي^٢ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾^(١) .

إنه من أهم المواثيق وأكدها وأشملها، فليس خاصاً بالنبين بل الأمم مطالبة بما أخذ على أنبيائها من الإيمان والتصديق برسول الله فالميثاق ميثاقهم والعهد عهدهم ﴿ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾^(٢) وبعد أن بين سبحانه الميثاق الذي أخذه على النبيين أمر محمداً ﷺ أن يؤمن بذلك، ويعلنه على الملأ: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾^(٣) وليس ذلك فقط، فلا يتحقق الميثاق إلا بإعلان: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُد مُّسْلِمُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾^(٤) .

والذين استخدموا عهد الله^(٥) ذريعة للتكذيب بالرسول يرد الله عليهم ما ادعوه وما افتروه ويكشف لرسوله ﷺ أن هذا ديدهم وسنة فيمن كان قبلهم، يرثها المتأخر عن المتقدم ويورثها السابق للاحق: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ فَلَمَّا قَتَلْتُمُوهُمْ إِذْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٨٤﴾^(٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٦﴾ .

ولقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بالإيمان بمحمد ﷺ ولا يتم الإيمان به إلا أن يصاحب ذلك دعوة الناس إلى الإيمان به وبيان أنه على الحق، مستدلين على ذلك بما معهم من التوراة والإنجيل، مما لم

١ - سورة آل عمران آية: ٨١.

٢ - سورة آل عمران آية: ٨٢.

٣ - سورة آل عمران آية: ٨٤.

٤ - سورة البقرة آية: ١٣٦.

٥ - وصية الله وأمره، وهو داخل في الميثاق الذي أخذه عليهم.

٦ - سورة آل عمران آية: ١٨٣ - ١٨٤.

يكن عند غيرهم من الأمم الوثنية التي كانت تنظر إلى اليهود والنصارى نظرة تقدير واحترام لدينهم الذي يتميزون به عن غيرهم ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ (١) .

وجاء الميثاق في سورة النساء في سياق الآيات التي تتحدث عن وجوب الإيمان برسول الله جميعاً، مبيّنة كفر من فرق بين أحد منهم، مذكرة بني إسرائيل بالمواثيق التي أخذت عليهم في ذلك، يقول جل وعلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (٢) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٣) .

ثم يذكر الله سبحانه قصة أهل الكتاب مع موسى - عليه السلام - وأخذ الميثاق عليهم وماذا كانت النهاية؟ هل آمنوا بالله ورسوله؟ وهل عزّروا الأنبياء ووقّروهم؟ بهذا يكون الوفاء بالميثاق ولكن: ﴿ فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ وَكَفَرُوا بِمَا آتَى اللَّهَ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٣) الآيات .

وتبين لنا آية الميثاق في سورة المائدة نوع ميثاق بني إسرائيل وما اشتمل عليه، فتذكر أن الإيمان بالرسول وإجلالهم ونصرهم من أهم بنود هذا الميثاق الذي لم ينفذ ﴿ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمْ مَوَاهِبَهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ (٤) الآية .

. ثم يبين أنه قد أخذ الميثاق على النصارى كما أحذه على اليهود، ولكن كما مرد أولئك على الكفر والعصيان سار هؤلاء على طريقتهم واستنوا بسنتهم السيئة، ومع ذلك فالله سبحانه يدعو من جاء

١ - سورة آل عمران آية: ١٨٧ .

٢ - سورة النساء آية: ١٥٠ .

٣ - سورة النساء آية: ١٥٥ .

٤ - سورة المائدة آية: ١٢ .

بعدهم من أهل الكتاب للإيمان بهذا الرسول الكريم ﷺ ليبين لهم ما اختلفوا فيه، وما أخفوه من كتبهم، ويعفوا عن كثير مما كان عليهم، وبهذا يتم وفاؤهم بالميثاق الذي أخذه عليهم وعلى أسلافهم، وإلا فمصيرهم مصير من درج قلبهم، اللعن والطرد وقسوة القلوب، والعداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وهذا ما كان منهم، فتحقق وعد الله فيهم ويوم القيامة سوف ينبتهم الله بما كانوا يصنعون.

وفي آية أخرى يذكر الميثاق وإرسال الرسل، وهذا يقتضي منهم أن يأخذوا الميثاق ويؤمنوا بهؤلاء الرسل، ولكن الموقف هو الموقف، والأسلوب هو الأسلوب عند متقدميهم ومتأخريهم ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا ط كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (١).

ويصف الله سبحانه الذين كذبوا الرسل وبما جاءوا به بالفسق وعدم الوفاء بالعهد وهي الخيانة بعينها: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ (٢).

وكما بين في سورة (آل عمران) أنه سبحانه قد أخذ الميثاق على النبيين بين ذلك - مرة أخرى - في سورة الأحزاب ولكن بصيغة أخرى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ط وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (٣) وقد بينت أن هذا الميثاق يتضمن - كما أشارت آية آل عمران أن يصدق بعضهم بعضاً ويؤمن بعضهم ببعض.

وكما دعا المؤمنين في سورة الحديد إلى الإيمان به سبحانه دعاهم للإيمان برسوله ﷺ وذكرهم بالميثاق الذي أخذه عليهم ليكون أدعى للقبول والإجابة: ﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ

١ - سورة المائدة آية: ٧٠.

٢ - سورة الأعراف آية: ١٠٢.

٣ - سورة الأحزاب آية: ٧.

مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١﴾ ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢﴾ .

وهكذا ترد آيات العهد والميثاق في مجال الدعوة والإيمان بالرسول والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وقد وردت بأساليب عديدة وألفاظ متنوعة لتصل من خلال ذلك إلى تحقيق هذا الهدف العظيم، فعدم الإيمان بالرسول نقض للعهد والميثاق، والإيمان برسول دون رسول أو بنبي دون آخر كفر بواح وتفريق بين رسل الله، والمؤمنون يقولون ويعتقدون ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ ﴿٣﴾ وبهذا يكون أداء الميثاق والوفاء بالعهد ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

الإيمان بالشرائع المنزلة

أرسل الله رسله وأنزل كتبه إلى البشرية بدين واحد، وعقيدة واحدة، لم تتغير ولم تتبدل من لدن نوح - عليه السلام - إلى خاتم الأنبياء وصفوة المرسلين نبينا محمد ﷺ. وإن كان هناك من اختلاف فهو في فروع الشريعة وما يتصل بها من أحكام وكما أن شريعة النبي الواحد يدخلها النسخ فالشرائع كذلك، لأن لكل أمة ما يناسبها وما يلائم حاجاتها ومصالحها، والله سبحانه وتعالى هو العليم الخبير. والقرآن الكريم يقرر في أكثر من موضع أن دين الله الإسلام: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ﴿٤﴾ ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ﴿٥﴾ ونوح يقول لقومه: ﴿ وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

١ - سورة الحديد آية: ٧.

٢ - سورة الحديد آية: ٨.

٣ - سورة البقرة آية: ٢٨٥.

٤ - سورة آل عمران آية: ١٩.

٥ - سورة آل عمران آية: ٨٥.

﴿١١﴾ ﴿^(١) ويقول الله عن إبراهيم الخليل: ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ ^(٢) وموسى يقول لقومه: ﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ ^(٣) .

وإبراهيم وصى بنيه ويعقوب - أيضاً - : ﴿يَبْنِيْٓ إِنَّا لَنُحْيِيْ لَكُمْ ٱلْدِيْنَ فَلَا تَمُوتُنَّ ءِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ^(٤) .

والحواريون قالوا: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ^(٥) والمسلمون أمروا أن يقولوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ^(٦) .

هذا هو دين الله أولاً وآخرًا، وماضيًا وحاضرًا، وهذا ما أخذ الله عليه الميثاق من البشر بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ومقتضى العبادة أن يكونوا مسلمين، ولكن الأهواء والشهوات تعصف في قلوب كثير من الناس فتختل عندهم الموازين، وتتغير المفاهيم، فيؤمنون برسول دون آخر، وبشريعة دون أخرى، فهام اليهود يدعون الإيمان بشريعة موسى ويكفرون برسالة عيسى بن مريم، واليهود والنصارى كل يدعي الإيمان بشريعته ويكفرون بما أنزل على محمد ﷺ إنه التعصب الأعمى والضلال المبين. ومن أجل بيان أن الشريعة واحدة، كما أن الرب واحد، أخذ الله الميثاق على الناس بالإيمان بجميع الشرائع المنزلة إيمانًا مجملًا، والشريعة الناسخة إيمانًا مفصلاً، وبعد أن ذكر الله الميثاق الذي أخذه على النبيين بأن يؤمن بعضهم ببعض وينصر بعضهم بعضًا، حكم على من خالف ذلك من الأمم بأنه من الفاسقين ثم قال سبحانه: ﴿أَفَغَيْرِ دِيْنِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ ٱسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ^(٧) .

١ - سورة يونس آية: ٧٢.

٢ - سورة آل عمران آية: ٦٧.

٣ - سورة يونس آية: ٨٤.

٤ - سورة البقرة آية: ١٣٢.

٥ - سورة آل عمران آية: ٥٢.

٦ - سورة البقرة آية: ١٣٦.

٧ - سورة آل عمران آية: ٨٣.

ثم أمر نبيه ﷺ أن يعلنها عقيدة واحدة: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

وفي سورة المائدة ذكر الله ما أخذه على اليهود والنصارى من موثيق، ومما تتضمنه هذه الموثيق أن يؤمنوا برسول الله وما معهم من شرائع من عند الله، ولكنهم كفروا وتمردوا فنقضوا عهودهم وموآثيقهم، ويدعو الله - سبحانه - من كان من اليهود والنصارى على عهد رسول الله ﷺ أن يؤمنوا بهذا النبي وبشريعته التي معه وفيها لهم الخير والفلاح: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) ولكنهم نقضوا موآثيقهم وخانوا عهودهم - إلا القليل منهم - فكفروا بالإسلام وتولوا وهم معرضون.

ويأمر الله رسوله ﷺ أن يدعو أهل الكتاب قائلاً: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْمُ عَلَيْ شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا

التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ ﴾ (٣) وذلك لما جاء بعض اليهود إلى رسول الله ﷺ وقالوا: إنا نأخذ بما في أيدينا فإننا على الحق والهدى، ولا نؤمن بك، ولا نتبعك، فأنزل الله هذه الآية (٤) مبينة أن الشريعة واحدة وكلها من عند الله فالكفر بالبعض كفر بالكل، والكفر بواحدة كفر بالله جل وعلا، ثم ذكرهم بما أخذه عليهم من ميثاق: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِم رُسُلًا ۗ ﴾ (٥) الآية.

وهكذا نرى مدى استعمال مصطلح العهد والميثاق في مجال الإيمان بالشرائع المنزلة على أنبياء الله وأنها من عند الله، أولها يخبر عن آخرها، وآخرها يكمل أولها، ورب نوح - عليه السلام - هو الذي أرسل محمداً ﷺ وهو الذي بعث موسى - عليه السلام - وأمرنا أن ندعن له قائلين: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ

١ - سورة البقرة آية: ١٣٦.

٢ - سورة المائدة آية: ١٦.

٣ - سورة المائدة آية: ٦٨.

٤ - انظر تفسير الطبري ٣١٠/٦.

٥ - سورة المائدة آية: ٧٠.

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾^(١) ﴿ وَخَنُ لَهُ عَبْدُونَ ﴾^(٢)

وقد اتضح لنا فيما مضى المجالات التي تم فيها ورود مصطلح العهد والميثاق في باب العقيدة، وتبين أثر هذا المصطلح في تقرير العقيدة، وبيانها والذود عن حماها، ودعوة الناس إلى الوفاء بعهودهم ومواثيقهم التي عاهدوا الله عليها، في الإيمان به وتصديق رسله وما معهم من كتب وشرائع.

ثانياً: في العبادات

أمر الله سبحانه عباده بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وجاء الأمر بالعبادة مجملاً ومفصلاً، فنجد مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٣) وقوله: ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾^(٤) وكما جاء الأمر بالعبادة مجملاً جاء مفصلاً كقوله جل وعلا: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾^(٥) وقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبْدِينَ ﴾^(٦) وغيرها من الآيات، ومن هنا فإن من أوسع المجالات التي استعمل فيها لفظ العهد والميثاق مجال الأمر بالعبادة في فروعها المتنوعة، فنجد في أمر الله لبني إسرائيل بالوفاء بالعهد يقول لهم سبحانه:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴾^(٧) وبعد أن يأمرهم سبحانه بالإيمان بما أنزل وينهاهم عن كتمان الحق، وكل ذلك من العهد الذي أخذه عليهم يقول لهم آمراً: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

١ - سورة البقرة آية: ١٣٦.

٢ - سورة البقرة آية: ١٣٨.

٣ - سورة الذاريات آية: ٥٦.

٤ - سورة النساء آية: ٣٦.

٥ - سورة البقرة آية: ٤٣.

٦ - سورة الأنبياء آية: ٧٣.

٧ - سورة البقرة آية: ٤٠.

وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَارْتَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١﴾ ^(١) وذلك من الوفاء بالعهد الذي طالبهم به، وخوفهم عاقبة التفريط فيه.

وفي بيان الميثاق الذي أخذه على بني إسرائيل يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ^(٢) ففي هذه الآية تضمن الميثاق جملة من الأمور التعبدية التي أمر الله بها بني إسرائيل أن يقوموا بها ويؤدوها على وجهها.

وفي سورة المائدة نجد أن الآية المباشرة لآية القيام للصلاة وكيفية الوضوء والتميم هي قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ ^(٣).

وكما جاءت آية البقرة مبينة لنوع الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل جاءت آية المائدة كذلك مبينة الميثاق متضمناً بالعبادة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ ^(٤).

وقد ذكر الله أخذ الميثاق على بني إسرائيل في سورة الأعراف، وبعد آية الميثاق مباشرة جاء قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكَتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ^(٥) ثم جاء بعدها متصلاً بيان رفع الطور على بني إسرائيل وأمرهم بأخذ التوراة وإعطاء الميثاق على ذلك. ويأتي ذكر العهد في سورة التوبة بصيغة الاستفهام الإنكاري الذي يحمل في ذاته التعجب: ﴿كَيْفَ يَكُونُ

١ - سورة البقرة آية: ٤٣.

٢ - سورة البقرة آية: ٨٣.

٣ - سورة المائدة آية: ٧.

٤ - سورة المائدة آية: ١٢.

٥ - سورة الأعراف آية: ١٧٠.

لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ تَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ .

ثم يذكر أسباب عدم جواز استمرار العهد وأنه لا بد من إنهائه عاجلاً أم آجلاً، ولكن القرآن بأسلوبه الرائع للوصول إلى غاياته ينقلنا نقلة أخرى يتغير معها الحكم والوصف: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ (٢) .

لا عهد مع المشركين، ولكن إن تابوا وعبدوا الله حق عبادته بإقامة أهم أركان العبادة: الصلاة والزكاة، فإن لهم عهداً آخر، وهو عهد الأخوة في الله، أقوى وثاقاً وأشد رباطاً.

ويأتي ذكر العهد - أيضاً - في ركن من أركان العبادة التي أمر الله بها، وهي الزكاة وسائر فروع

النفقة في سبيل الله (٣) دليلاً على أهمية هذا الركن ووجوب أدائه، وسوء عاقبة من خان عهده في ذلك:

﴿ وَمَنْ مَنَّ عِنْدَ اللَّهِ لَيْسَ أَتَدْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٤) الآيات .

وفي آية المبايعة في سورة التوبة يأتي وصف المؤمنين الذي يفون ببيعهم - وهو عهد مع الله - يشتمل

على عدة أنواع من العبادة تؤهل صاحبها لنيل رضا الله والحصول على الجنة، وفاء بعهد الله ووعدده: ﴿

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الَّذِينَ يَأْتُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ (٥) .

١ - سورة التوبة آية: ٧.

٢ - سورة التوبة آية: ١١.

٣ - انظر تفسير الطبري ١٠/١٨٨.

٤ - سورة التوبة آية: ٧٥.

٥ - سورة التوبة آية: ١١٢.

ثم هم مع ذلك يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، ومن صفات أولي الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق أنهم: ﴿ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيِّئَةً أُولَئِكَ هُمُ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (١).

وفي سورة (المؤمنون) وهو يعدد صفات المؤمنين نلاحظ أنه جاء بعد آية العهد مباشرة أن من صفاتهم المحافظة على الصلاة: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ تَحَافِظُونَ ﴾ (٣) وكان هذا إيحاء إلى أن الصلاة من العهد فهم يراعونها بالمحافظة عليها، وفي هذا المعنى جاء قوله ﷺ " العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر " (٤).

ومثل ذلك جاءت آية العهد في سورة المعارج حيث تلتها - بعد آية - آية المحافظة على الصلاة: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٥) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ (٦) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ تَحَافِظُونَ ﴾ (٧).

وهذا تأكيد لما سبق ودليل على قوة صلة العهد بالعبادات، ومن هنا جاء استخدام مصطلح العهد والميثاق في مجال العبادات، حيث أن أمور الشريعة والعبادة والعقيدة شيء واحد يتبغي فيها المؤمن تحقيق مرضاة الله والوفاء بعهده معه، لينال ما وعده الله به، وينجو من عذاب الله وعقابه الذي توعد به: ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٨).

١ - سورة الرعد آية: ٢٢.

٢ - سورة المؤمنون آية: ٨-٩.

٣ - رواه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة ١٢٦/٤.

٤ - سورة المعارج آية: ٣٢.

٥ - سورة البقرة آية: ٢٧.

ثالثاً: في الأخلاق

من الأمور التي عنيت بها الشرائع السماوية على اختلاف أزمانها وأماكنها أن يتحلى المتمون إلى الشريعة بالأخلاق الفاضلة والصفات المثلى، والأخلاق: مجموعة من أنماط السلوك الحسن تسود المجتمع ويتلبس بها الفرد، وبها عن طريقها تخلو المجتمعات من خوارم المروءة وقبيح العادات. ولقد جاء القرآن والسنة بالحث على حسن الخلق والتحلي بمكارم الأخلاق. ويكفي هنا أن أشير إلى قوله تعالى مادحاً رسوله الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلْفٍ عَظِيمٍ﴾ (١) [القلم: ٤].

أما الأحاديث فكثيرة جداً منها قوله ﷺ فيما يرويه عبد الله بن عمر: " إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً " رواه البخاري (٢).

وروى البخاري تعليقاً قال: قال أبو ذر لما بلغه مبعث النبي ﷺ - قال لأخيه اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله، فرجع فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق (٣).

وروى الإمام مالك عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: " من حسن المرء تركه ما لا يعنيه " (٤).

وروى - أيضاً - قوله ﷺ " بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ " (٥).

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ " إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وأطفهم بأهله " (٦).

١ - سورة القلم آية: ٤.

٢ - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق ١٦/٨.

٣ - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق ١٦/٨.

٤ - الموطأ، كتاب حسن الخلق - ص ٥٦٣، قال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي محقق ومخرج أحاديث الموطأ: الحديث حسن، بل صحيح أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة.

٥ - الموطأ، - كتاب حسن الخلق - ص ٥٦٤، قال ابن عبد البر: هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة.

٦ - المسند ٤٧/٦.

مما مضى يتضح مدى اهتمام الإسلام بالأخلاق الفاضلة لما لها من أثر قوي على بنية المجتمع المسلم وقوة الدولة الإسلامية. ومن هنا فقد جاء العهد والميثاق في القرآن الكريم في مجال الالتزام بالأخلاق النبيلة والسلوك الحسن، ففي سورة البقرة يأمر الله بني إسرائيل بالوفاء بالعهد، والوفاء خلق رفيع، كما أن الغدر والخيانة خلق ذميم: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾^(١).

وعندما كذب بنو إسرائيل وتألوا على الله - وهذا من أحسن الأخلاق - ردّ الله عليهم ردًا كشف كذبهم ودناءتهم حتى مع الله جل وعلا. ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٢) وقد تضمن الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل بعض الأخلاق التي يجب أن يتحلوا بها ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾^(٣) ثم اتضح لنا أنهم ارتكبوا خلقين ذميمين، وهما عدم التحلي بتلك الأخلاق الفاضلة وأشد من ذلك نقضهم الميثاق وعدم الوفاء به ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾^(٤).

وإذا كانت الكلمة السيئة تعبر عن سوء الخلق فكيف بقتل الإنسان لأخيه الذي هو في مقام النفس لقربه ووجوب القيام بحقه، وإيذاء المرء لجاره خلق ذميم وأساء منه إخراجة من داره بدون حق، لذلك أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بالكف عن هذه الأخلاق الدنيئة، بل وأقرهم على ذلك تأكيدًا واهتمامًا. ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾^(٥) ولكن يأبى اليهود - كعادتهم - إلا الشقاق وسوء الأخلاق^(٦). وكل الآيات التي

١ - سورة البقرة آية: ٤٠.

٢ - سورة البقرة آية: ٨٠.

٣ - سورة البقرة آية: ٨٣.

٤ - سورة البقرة آية: ٨٣.

٥ - سورة البقرة آية: ٨٤.

٦ - انظر الآية [٨٥] حيث بيّنت مآل الميثاق.

جاءت مبينة نقض العهد والميثاق من قبل من أخذ منهم تدل على اتصاف أولئك بأسوأ الأخلاق وأقبحها ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾^(١)

﴿ أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيفًا مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾^(٢).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَافَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا

يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٤﴾ ﴾^(٣).

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ

فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾^(٤).

وفي المقابل يصف القرآن الذين يوفون بالعهد بأحسن الصفات ومكارم الأخلاق: ﴿ وَالْمُوفُونَ

بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

﴿ ١٣٧ ﴾^(٥) ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾^(٦) ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَادِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ

لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ آتَنَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ

فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ ﴾^(٨).

١ - سورة البقرة آية: ٩٣.

٢ - سورة البقرة آية: ١٠٠.

٣ - سورة آل عمران آية: ٧٧.

٤ - سورة الأنفال آية: ٥٥.

٥ - سورة البقرة آية: ١٧٧.

٦ - جاءت هذه الآية مبينة ما البر، حيث قال تعالى: (ولكن البر من آمن بالله) الآية، والبر حسن الخلق.

٧ - سورة آل عمران آية: ٧٦.

٨ - سورة المؤمنون آية: ٨-١.

﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴿ (١).

ونقض الميثاق يؤدي إلى سوء السلوك والأخلاق: ﴿ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۗ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِبَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ (٢) ومع هذه الأخلاق المتراكمة كظلمات بعضها فوق بعض يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يقابل ذلك بحسن الخلق والصبر والتحمل: ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) ما أروع هذا القرآن كيف يربي الرجال.

واستمراراً لورد العهد والميثاق في مجال بناء الأمة على الأخلاق السامية يأمر الله عباده على لسان نبيه ﷺ بعدد من الوصايا التي تكون جيلاً ذا خلق رفيع، ثم يحتتم تلك الوصايا الخالدة بقوله سبحانه: ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۗ ذَٰلِكُمْ وَصَّانِكُمْ بِهِ ۗ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) (٥).

فالوفاء بالعهد ضماناً لأداء تلك الأوامر واجتناب ما ورد من نواهي ومن ثم يكون الانقياد والطاعة وحسن الخلق، وإخلاف العهد نقض للعهد، ينحط بصاحبه إلى أسوأ البشر أخلاقاً - وبخاصة إذا كان العهد مع الله - فإن المتصف بتلك الصفة ينتقل من مجتمع الصادقين المتقين إلى تجمع المخادعين الكاذبين من المنافقين: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٦).

١ - سورة الأحزاب آية: ٢٣.

٢ - سورة المائدة آية: ١٣.

٣ - سورة المائدة آية: ١٣.

٤ - سورة الأنعام آية: ١٥٢.

٥ - سورة الأنعام: الآية (١٥٢) وانظر الآية التي قبلها حيث ابتدأت (قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم) الآية (١٥١).

٦ - سورة التوبة آية: ٧٧.

وفي حالة عصبية مرت على أولاد يعقوب يتشاورون أي طريق يسلكونه للتخلص من المأزق الذي هم فيه، يذكرهم كبيرهم بخلق رفيع لئلا ينحرفوا مع حل قد ينجيهم ظاهراً، ولكنه ينافي مقومات الوفاء والأخلاق، ولئن كانوا وقعوا في الكذب في قصة يوسف فلا يجوز الأمر هنا، لأن موثقاً قد تم بينهم وبين أبيهم والله شاهد عليه ووكيل: ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ (١).

إذا ما الحل وأين المخرج؟ يجيبهم: عليكم بالصدق فهو منجاة: ﴿ فَقُولُوا يَتَابَعَانَا إِنِّ ابْتَنَّاكَ سَرَفًا وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ (٢) وهكذا يكون الميثاق سبباً للالتزام بجميل الأخلاق.

وفي سورة النحل يأمر الله بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وكلها صفات خلقية حميدة، وينهى عمّا يقابلها من الفحشاء والمنكر والبغي، ثم يعقب ذلك بقوله: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ (٣).

ومثال ذلك في سورة الإسراء حيث يأمر الله بخصال حميدة، وينهى عن عدة خصال من الخصال الذميمة التي لا يجوز للمسلم أن يقرب منها أو يقترفها، وقبل أن ينهى تلك الخصال يقول سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (٤).

ثم تواصل الآيات النهي عن بقية الصفات التي تتنافى مع دين المؤمن وخلق، وتأمره بمحامد الأخلاق وأحسنها. والذي كفر بآيات الله وكذب في دعواه غروراً وخطرسة وتبجحاً وتعالياً على المؤمنين، يرد الله ما ادعاه وافتراه ويكشف عن خلقه الذميمة، ويتوعده بأشدّ العذاب: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِعَائِنَتِنَا

١ - سورة يوسف آية: ٨٠.

٢ - سورة يوسف آية: ٨١.

٣ - سورة النحل آية: ٩١.

٤ - سورة الإسراء آية: ٣٤.

وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴿١﴾.

وهكذا نجد مصطلح العهد والميثاق يؤدي مهمة أساسية في الحث على مكارم الأخلاق وتخليص الفرد والمجتمع من الصفات الفاسدة التي متى ما شاعت في أمة فهي نذير الهلاك والزوال والاضمحلال، وصدق الشاعر:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا (٢)

رابعاً: في العلاقات الدولية

تكتسب العلاقات بين الدول أهمية قصوى في تاريخ الأمم والشعوب، فكم أدى حسن الجوار إلى الاستقرار والإزهار، وكم من بلاد دمرت ودماء سفكت وأعراض انتهكت، مبعث ذلك سيادة شريعة الغاب وسياسة أشباه الثعالب والذئاب.

ولقد جاء الإسلام فوجد الجزيرة العربية تعيش في فوضى وتنتابها القلاقل، لا تعرف للاستقرار مذاقاً، الكبير يأكل الصغير، والضعيف لا يأمن غدر القوي، وعند نشأة الدولة الإسلامية الأولى، كان من أولى دعائم أسس هذه الدولة إقامة العلاقة التي تبني على الاحترام والتقدير، ومن هنا جاءت العهود والمواثيق بين الدولة الإسلامية الفتية وسائر التجمعات والقبائل المتاخمة لها، أو من تربط معها بمصالح سياسية أو اقتصادية أو عسكرية. وشاع بين القبائل والشعوب أن هذه الدولة لا تعطي عهداً ولا توقع ميثاقاً إلا كانت رائدة في الوفاء به وحسن أدائه، لا يعرف عنها الغدر ولا الخيانة، حتى في أحلك الظروف وأقساها، بل إنها تنصف من نفسها قبل أن تطلب الإنصاف من الآخرين، وهذا مما لم تعهده تلك الأمم والقبائل قبل ذلك، فسارعت الإمارات والقبائل والطوائف بطلب الأمان وعقد الميثاق، لتنعم بالاستقرار

١ - سورة مريم آية: ٧٧.

٢ - البيت لأحمد شوقي.

بعد طول عناء واضطراب، فأرسلت الوفود وأذنت لسياسة مثلى تسجل صفحة بيضاء في جبين التاريخ.

ولقد جاء القرآن الكريم يرسم بعض معالم تلك السياسة ويحدد مبادئها، وإطارها الذي تسير فيه، وبهذا كانت العلاقات الدولية مجالاً من المجالات التي توثقت بالعهود والمواثيق، وكان ذلك عاملاً حاسماً من عوامل انتصار وانتشار الدولة الإسلامية ودعوة الإسلام.

ينعي الله على المؤمنين في سورة النساء اختلافهم وافتراقهم في شأن فئة من المنافقين أرادوا أن يتلاعبوا في دين الله، فيقول سبحانه: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾^(١) كل فئة لها فيهم رأي، ألا فاسمعوا إلى حكم الله فيهم من فوق سبع سموات: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾^(٢) أمر حاسم وشديد لا مجال للاختلاف فيه، ولكن على فظاعة جرمهم وشدة عقوبتهم ينقلنا القرآن الكريم نقلة فيها احترام للعهود والمواثيق، قد لا تخطر على بال البعض أثناء شدة الطلب وتنفيذ الأمر، حيث قد يلجأ أولئك إلى قوم بيننا وبينهم عهد وميثاق حقناً لدمائهم وصيانة لأموالهم، ففي هذه الحالة لا قتل ولا أخذ: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾^(٣) أنه أمر حكيم، يسموا على العواطف والانفعالات.

والمؤمن تؤدي دينة إن قتل خطأ مع الكفارة، أما إن كان مقيماً بين الكفار فلا دية له وتؤدي الكفارة، إلا إن كان من قوم تربطهم بالدولة الإسلامية عهود ومواثيق فدية وكفارة، احتراماً للعهد وصيانة للميثاق: ﴿ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾^(٤)

١ - سورة النساء آية: ٨٨.

٢ - سورة النساء آية: ٨٩.

٣ - سورة النساء آية: ٩٠.

٤ - سورة النساء آية: ٩٢.

وشر الدواب أولئك الذين يعاهدون الدولة المسلمة ثم ينقضون عهودهم، خسة وخيانة، وجزاؤهم شديد وعقابهم أليم، ليكونوا عبرة لغيرهم ونكالا للآخرين: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فِيمَا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن حَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾^(١).

وإن بلغ الدولة المسلمة أن قوماً ممن عاهدوا يريدون الخيانة ويخططون لها، فلا يجوز للمسلمين أن ينقضوا العهد فجأة وبدون سابق إنذار، ما لم يكن هناك من البراهين الظاهرة على مباشرتهم لنقض عهودهم، وإنما لا بد من نبذ العهد وإعلامهم بفسحة قبل حربهم ومناجزتهم احتراماً للعهود: ﴿ وَإِمَامًا مَخَافًا مِّن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾^(٢) والمؤمنون تحب نصرتهم في الدين حتى ولو لم يهاجروا إلا إن كانت النصره موجهة إلى قوم بينهم وبين الدولة المسلمة عهد وميثاق فلا نصره ولا مساعدة، فالوفاء بالعهد أولى وأداء حق الميثاق أحرى وأجدى: ﴿ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ﴾^(٣).

وتأتي سورة التوبة لترسم علاقة الدولة الإسلامية بغيرها، وتحدد الموقف من المشركين، ومآل العهود والمواثيق التي سبق عقدها وإبرامها معهم، وهل يجوز تجديد تلك العهود أولاً في تفصيل شامل بين لا يدع مجالاً لتلاعب متلاعب أو غدر خائن: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ ﴾^(٤) والآيات^(٥).

وهكذا نرى ما للعهد والميثاق من أثر في بنية الدولة الإسلامية، والأطوار التي مرت بها تلك العهود والمواثيق، وما استقر عليه الأمر في النهاية، تبعاً لنشأة الدولة المسلمة واستقرارها.

١ - سورة الأنفال آية: ٥٥.

٢ - سورة الأنفال آية: ٥٨.

٣ - سورة الأنفال آية: ٧٢.

٤ - سورة التوبة آية: ١.

٥ - الآية ١ وانظر ما بعدها من آيات إلى نهاية الآية ١٥ حيث فيها تفصل ما ذكر.

خامساً: في المعاملات

التعامل بين الأفراد ركيزة أساسية من ركائز بنية المجتمعات، والتعامل بين المجتمعات دعامة قوية من دعائم بناء الدولة والحكومات.

ولقد عنيت النظم قديماً وحديثاً في تنظيم هذا الأمر ضمن إطار يحقق المصالح ويجنب الشقاق والنزاع، ولم تعرف البشرية ديناً أو نظاماً كفل حقوق الأفراد ووضع الأسس التي يسير عليها الناس في تعاملهم كما تم في الإسلام، فقد حظي هذا الجانب بعناية فائقة شأن الإسلام في كل شئون الحياة، ولقد بلغ الاهتمام في هذا المجال حدّاً يصوره لنا الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان، حيث يكشف لنا عما وصل إليه المجتمع المسلم من أسلوب رائع في التعامل نتيجة لتلك الأسس التي بنيت عليها الدولة الإسلامية، يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديث الذي يرويه عنه البخاري في صحيحه: ولقد أتى علي زمان ولا أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلماً رده علي الإسلام، وإن كان نصرانياً رده علي ساعيه ^(١).

ولقد جاء العهد والميثاق في القرآن الكريم في إطار تنظيم التعامل بين الناس لتحمل الثقة والأمانة مكان التوجس والخوف والخيانة، ونجد قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٢) قد جاء بعد أن ذكر لنا سبحانه واقع أهل الكتاب من حيث التعامل معهم ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ ^(٣) الآية.

وهذا دليل قوي على أن التعامل والتقايض نوع من العهود يجب الوفاء به، وأي خلل في ذلك فهو خيانة ونقض للعهود.

وتأتي آية المائدة مؤكدة هذا الأمر: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ ^(٤).

١ - صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب إذا بقي في حثالة من الناس ٦٦/٩.

٢ - سورة آل عمران آية: ٧٦.

٣ - سورة آل عمران آية: ٧٥.

٤ - سورة المائدة آية: ١.

والزواج والطلاق نمط من أنماط التعامل البشري يحتاج إلى ضمانات قوية تضفي على طرفي العقد الود والوثام بعيداً عن أي محاولة للمكر والخداع.

ونلمس قوة هذا العقد وأهميته في ميزان الإسلام عندما نقرأ سورة النساء: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتِنًا وَإِنَّمَا مَثَبُهَا ۖ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُمْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۗ ﴾ (١) وهذا ما أكد المواثيق التي جاءت في القرآن، وسياق الآية يدل على الاهتمام البالغ به.

وفي وصايا سورة الأنعام يجمع بين إيفاء الكيل والميزان وبين الوفاء بالعهد مما ينبئ عن قوة العلاقة بينهما: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۗ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۗ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا ۗ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۗ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ ۗ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۗ ﴾ (٢).

ويعقب الأمر بالوفاء بالعهد في سورة النحل الأمر بالعدل والنهي عن البغي، والتعامل بين الناس إن لم يصاحبه العدل كان بغيًا وعدوانًا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۗ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۗ ﴾ (٣) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۗ ﴾ (٤).

أما في وصايا الإسراء فيأتي الأمر في الوفاء بالعهد ثم يعقبه مباشرة الأمر بالوفاء بالكيل والوزن بالعدل، وهذا يؤكد مدى قوة العلاقة بينهما كما قلت في وصايا سورة الأنعام: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۗ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۗ ﴾ (٥) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ ۗ أَلْمُسْتَقِيمِ ۗ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۗ ﴾ (٦)

١ - سورة النساء آية: ٢٠.

٢ - سورة الأنعام آية: ١٥٢.

٣ - سورة النحل آية: ٩٠.

٤ - سورة الإسراء آية: ٣٤.

والأمانة من أهم أشكال التعامل وأخطرها، ومن هنا نجد العناية بها، حيث نلاحظ الجمع بينها وبين رعاية العهد في موضعين من القرآن، مع أن الآيات السابقة لهذه الآية في الموضعين واللاحقة كذلك كل آية منها استقلت في موضوع واحد، بينما جمعا في آية واحدة، وهذا لم يأت عبثاً - وحاشا لله عن ذلك - وإنما للرباط القوي بين معنهما فالأمانة عهد والعهد أمانة: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾^(١).

وهكذا يتعامل المسلم مع أخيه أو مع غيره والميثاق والعهد بينه وبين الله يحرسه، فلابغي ولا عدوان ولا ظلم ولا خيانة، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وإلى الله عاقبة الأمور.

سادساً: في القضايا الاجتماعية

انطلاقاً من عناية الإسلام في بناء المجتمع المسلم الصالح، جاء الاهتمام في كل قضية تتعلق بالأسرة والمجتمع، وتوالت الآيات والأحاديث التي ترصد كل صغيرة وكبيرة في كيان الأمة الإسلامية في طور نشأتها الأولى، حتى قام صرح شامخ قوي البنيان متين الأركان، لا تهزه العواصف، ولا تفككه الرياح، تقابه الأعداء، وتحسب له ألف حساب، ومن تلك الوسائل التي كونت دعامة أساسية في بناء هذا المجتمع، تلك العناية الفائقة التي أولاها القرآن الكريم لهذه الأمة تربية وإعداداً، ومن ذلك الآيات التي جاءت تعالج القضايا الاجتماعية، وتكون أسسها ومنطلقاتها، وفي هذا المجال جاء مصطلح العهد والميثاق لبنة قوية من تلك اللبنة المباركة.

ففي سورة البقرة يبين لنا الله سبحانه ما أخذه على بني إسرائيل من ميثاق يتضمن عدداً من القضايا الاجتماعية الأساسية؛ فالبر بالوالدين، وصلة الأرحام، والعطف على اليتامى، والإحسان على المساكين، والقول الحسن لجميع الناس، أمور يجب أن يتحلى بها الأفراد ويلتزم بها المجتمع، فهي من صميم تركيبة

١ - سورة المؤمنون آية: ٨.

البناء: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دَيْرِكُمْ ثُمَّ أَقَرُّكُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (١)

وتأتي الآية التي بعدها مبينة أخذ الميثاق - أيضاً - في قضيتين اجتماعيتين هامتين: عدم جواز قتل الإنسان لأخيه مثلما أنه لا يحل له قتل نفسه، فالحكم واحد والنتيجة واحدة، وكذلك لا يجوز له أن يخرج أخاه من داره وبلده، أو أن يرتكب عملاً يؤدي إلى إخراجة هو من مسكنه وبلده: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دَيْرِكُمْ ثُمَّ أَقَرُّكُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (٢).

ويجعل الإحلال بهذا الميثاق كفر يستحق صاحبه أشد العذاب ﴿ أَفْتُمِنُونَ بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ (٣).

وقضية الزواج والطلاق قضية اجتماعية - كما هي مسألة تعاملية - يؤخذ الميثاق الغليظ على جزئيه فيها مما يدل على خطورتها وأثرها: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتِنًا وَإِنَّمَا مِيثَاقُكُمْ عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ مُبِينُونَ ﴾ (٤) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (٤).

وما حدث بين يعقوب وبين أبنائه مثال رائع على ما أتحدث عنه: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ

تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتِنَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ تُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٥)

١ - سورة البقرة آية: ٨٤.

٢ - سورة البقرة آية: ٨٤.

٣ - سورة البقرة آية: ٨٥.

٤ - سورة النساء آية: ٢٠.

٥ - سورة يوسف آية: ٦٦.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾^(١) فالميثاق كان عاملاً حاسماً في بداية ونهاية هذه القضية الاجتماعية.

وأولو الأبواب - كما في سورة الرعد - هو الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق وهم كذلك يتصفون بصفة لازمة للصفة الأولى وهي أنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل من صلة الوالدين والأرحام وحقوق الجوار وغيرهما مما أمر الله به: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ أَلْمِيثَافَ ﴾^(٢) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾^(٣) وضد أولئك من نقض عهده وقطع رحمه وأخل بما أمر الله به. وهكذا تتضح لنا معالم استعمال العهد والميثاق في القضايا الاجتماعية، تنويهاً للاهتمام بها ورعايتها ولما يؤدي التفريط بها من مفساد تعصف ببنية المجتمع وكيانه.

سابعاً: في الجهاد في سبيل الله^(٣)

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وركن أساس من أركانه^(٤) فقد ورد العهد في مجال الحث على الجهاد في سبيل الله، وبياناً لعظم شأنه وعلو مقامه، وأن التخلف يوم الزحف نقض لعهد الله وانتهاك لحرماته.

ففي سورة التوبة يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ ﴾^(٥) بعد قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾^(٦).

وعهد الله وعد ووعد عهده - سبحانه وتعالى - .

١ - سورة يوسف آية: ٨٠.

٢ - سورة الرعد آية: ٢٠.

٣ - أخرت هذا المجال مع أهميته لقلّة الآيات التي وردت فيه بالنسبة لما قبله.

٤ - لا أعني مصطلح الأركان الخمسة، وإنما أعم من ذلك، مع أن بعض العلماء عدّه الركن السادس من أركان الإسلام.

٥ - سورة التوبة آية: ١١١.

٦ - سورة التوبة آية: ١١١.

والتعبير هنا بالاشتراء كناية لجامع ما بينهما من الإيجاب والقبول، يؤكد التصريح بالعهد من الله جل وعلا.

ونعى الله على المنافقين في سورة الأحزاب سوء فعلتهم يوم الأحزاب وفرارهم عن الجهاد في سبيل الله، مع أنهم قد أعطوا عهودهم ومواثيقهم ألا يفرّوا.

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ (١).

ولكنهم خانوا وغدروا وبئس ما فعلوه.

والمؤمنون مدحهم الله لصدقهم ولوفائهم بعهودهم وثباتهم في ساحة الجهاد، وكانت أرواحهم ثمناً للوفاء بعهودهم: ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (٢).

صورتان متقابلتان: صورة المؤمنين بوفائهم وصدقهم مع الله، وصورة المنافقين بغدرهم وخيانتهم وسوء فعلتهم ونقف أخيراً مع آية سورة الفتح حيث يجعل الله بيعة الصحابة للرسول ﷺ بيعة له سبحانه وتعالى ويبيّن جزاء الموفين وعاقبة الناكثين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣) وعلام كانت البيعة: إنها على الموت في سبيل الله (٤). وهكذا يبدو شأن الجهاد في سبيل الله عظيماً، كيف لا وقد أخذ العهد على المؤمنين بأدائه والقيام به إلى يوم القيامة، وإن تخلّوا عن ذلك ضرب الله عليهم الذلة في الدنيا وعاقبهم في الآخرة - والله المستعان -.

١ - سورة الأحزاب آية: ١٥.

٢ - سورة الأحزاب آية: ٢٣.

٣ - سورة الفتح آية: ١٠.

٤ - انظر صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية ١٥٩/٥.

وأخيراً: فمما سبق اتضحت لنا المجالات التي استعمل فيها مصطلح العهد والميثاق في القرآن الكريم، وتبين لنا الأثر الفعّال لورود العهد والميثاق في تلك المجالات مما سنفصله في المبحث القادم - إن شاء الله

.-